نتذكر أن الولايات المتحدة، تاريخياً، اعتبرت التعبير الراديكالي عن القومية تهديداً لمصالحها. فطالما كانت «القومية» مقتصرة على المحتوى السياسي، مثلاً الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي أو البريطاني أو قبلهما الاسباني، كانت الولايات المتحدة تدعمها وتساندها. أما بعد أن يتحرر أي بلد من الاستعمار الفرنسي أو البريطاني أو الاسباني فالمفروض أن يفتح أسواقه أمام رأس المال الأميركي. فالوقفة الأميركية ضد الاستعمار، قبل الحرب العالمية الثانية، ودفاعها عن سياسة «الباب المفتوح»، ارتكزت إذاً الى أساس مادي. لقد خدمت هذه السياسة المصالح الاقتصادية الاميركية.

وللسبب نفسه، بينما كانت الحكومة والشركات الأميركية تصفق للتعبير السياسي عن القومية، فإن نظرتها كانت على الدوام عدائية للتعبيرات الاقتصادية والاجتماعية. فالتعبيرات الاقتصادية كان معناها تأميم الاقتصاد الوطني، فيما كانت التعبيرات الاجتماعية تجد ترجمتها في خلق دولة اشتراكية، واشتراكية الموارد الطبيعية. وهنا نفهم لماذا شنّت الولايات المتحدة، قبل الحرب العالمية الثانية، عدة حملات تدخل عسكرية وشبه عسكرية، في أميركا الجنوبية وأميركا الوسطى، لقمع التعبيرات الراديكالية للقومية.

وحين ورثت الولايات المتحدة النفوذ الآفل لبريطانيا وفرنسا، نقلت اتجاهاتها ونزعاتها المعادية للقومية التقدمية، إلى سائر أنحاء العالم الثالث، وبالأخص إلى الشرق الأوسط. ومن هنا كان أول تدخل أميركي في الشرق الأوسط في إيران، ضد نظام حكم قومي هدد المصالح الغربية بسلاح التأميم. فلم يكن هناك من يعتقد يومئذ في واشنطن، ولا يوجد من يزعم الآن، أن مصدق كان مطية للسوفيات، أو خاضعاً للتأثير الشيوعي. لقد كانت جريمته أن «قوميته» تطلبت محتوى اقتصادياً. وبالمثل كانت واشنطن شديدة القلق من التعبيرات الراديكالية للقومية العربية في الخمسينات. ومبدأ أيزنهاور لم يكن همّه احتواء الاتحاد السوفياتي فقط، بل القومية العربية الراديكالية كذلك. وحلف بغداد لم ينشأ ضد السوفيات فحسب، بل ولمحاربة الناصرية كذلك.

أما الآن، في الثمانينات، فلقد تغيّر الوضع. ما زالت النظرة إلى الاتحاد السوفياتي هي إياها: المنافس الرئيسي، ولذلك لا تزال سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، هي إياها: احتواء الاتحاد السوفياتي. لكن بعض الأنظمة القومية الراديكالية في المنطقة أثبتت، مع ارتفاع صوتها، أنها نمور من ورق، لينة العريكة، ضعيفة، خاوية، بلا هدف، وقابلة للتلف، بالسلطة والمال والتقنية. وهي خدمة لوضعيتها وأدبياتها، قد تثير غضب الامبريالية أحياناً، لكنها لم تعد، أبداً، هدفاً للامبريالية. فعلى امتداد العالم الثالث، وخصوصاً في أميركا اللاتينية والشرق الأوسط، أصبح التحرر الوطني، بأيديولوجيته وحركاته، هو هدف الامبريالية، وليس القومية الراديكالية. وفي هذا السياق ينبغي النظر إلى ممانعة واشنطن في التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية. فقبل اعترافها بها، تريد أن تعرّيها من كل مضامينها التحريرية التي تملك منها أكثر مما يمتلكه أي نظام في العالم العربي.

نوبار: لا بد أنك أطلعت على ما كتبه أنطوني كوردسمان بعنوان: «العربية السعودية والأواكس وبحث أميركا عن استقرار استراتيجي في الشرق الأدنى» ١٩٨١، وهي وثيقة نشرها «مركز ولسون» (واشنطن). وهو يخلص إلى النقاط الثلاث التالية: